

الإيمان والمعرفة في القرآن



قال تعالى في كتابه العزيز: (إِنَّ زَمَّامًا لِّمُنُونِ الَّذِينَ إِذًا ذُكِّرُوا بِالْجَنَّةِ قُلُوبُهُمْ وَإِذًا تُلَوِّحُ عُلَاقِيَهُمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال/ 2). إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ هَؤُلَاءِ، وَمِنْ خِلالِ أَدَاةِ الْحِصْرِ (إِنَّمَا)، فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَّصِفُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَلَيْسَ مُؤْمِنًا فِي عَمَقِ الْإِيمَانِ. فَأَنْ تَوْمَنَ بِالْإِيمَانِ، هُوَ أَنْ تَتَجَلَّى عِظْمَةُ الْإِيمَانِ فِي نَفْسِكَ فِي كُلِّ مَوَاقِعِ الْعِظْمَةِ فِي صِفَاتِهِ، وَفِي كُلِّ آفَاقِ الْعِظْمَةِ فِي ذَاتِهِ. وَأَنْ تَوْمَنَ بِالْإِيمَانِ، يَعْنِي أَنْ يَنْفَتِحَ فِكْرُكَ وَقَلْبُكَ وَإِحْسَاؤُكَ عَلَى أَنْعُمِ الْإِيمَانِ، لِتَتَحَسَّسَ ارْتِبَاطَ وَجُودِكَ بِهِ فِي كُلِّ تَفَاصِيلِهِ، مِنْ خِلالِ ارْتِبَاطِهِ بِالزَّعْمِ الَّتِي أُسِغَهَا الْإِيمَانُ عَلَيْكَ. وَقَدْ عَبَّرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ هَذَا الْإِحْسَاسَ بِالْوَجَلِ أَمَامَ الْإِيمَانِ مِنْ خِلالِ الشُّعُورِ بِعِظْمَةِ الْإِيمَانِ، حَيْثُ يَقُولُ: «عِظْمَةُ الْخَالِقِ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ»، فَلَقَدْ تَمَثَّلَتِ عِظْمَةُ الْإِيمَانِ فِي النَّفْسِ، بِحَيْثُ مَلَأَتْ كُلَّ وَجْدَانِ الْإِنْسَانِ، فَلَمْ يَرِ أَحَدًا عَظِيمًا قِبَالَ عِظْمَةِ الْإِيمَانِ سِبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَلْ عِنْدَمَا دَخَلَ فِي مَجَالِ الْمَقَارِنَةِ، رَأَى أَنَّ الْآخِرِينَ صَغَارًا صَغَارًا. فَإِذَا كَانَ الْإِيمَانُ يَحْصُرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَؤُلَاءِ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَعْمَلَ عَلَى تَرْبِيَةِ عِظْمَةِ الْإِيمَانِ فِي نَفُوسِنَا، بِالتَّفَكُّرِ فِي مَوَاقِعِ الْعِظْمَةِ وَفِي مَوَاقِعِ الذُّعْمَةِ، وَفِي الْإِحْسَاسِ بِالْفَقْرِ الْمَطْلُوقِ فِينَا إِلَى الْإِيمَانِ الْمَطْلُوقِ عِظْمًا، وَأَنْ نَمَارِسَ ذَلِكَ ذِكْرًا وَعِبَادَةً وَفِكْرًا وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

(وَإِذًا تُلَوِّحُ عُلَاقِيَهُمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)، إِذَا تُلَوِّحُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ الْكُونِيَّةُ وَآيَاتُهُ الْقُرْآنِيَّةُ، بِحَيْثُ إِنَّ إِيمَانَهُمْ يَتَحَرَّكُ وَيَتَطَوَّرُ وَيَزِيدُ مِنْ خِلالِ زِيَادَةِ الْمَعْرِفَةِ، فَكَلِمًا عَرَفَتْ مِنْ خِلالِ آيَاتِهِ أَكْثَرَ، عَرَفَتْ عِظْمَتَهُ عَلَى أُسَاسِ مَا تَفْهَمُهُ مِنْ أُسْرَارِ هَذِهِ الْآيَاتِ أَكْثَرَ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْإِيمَانُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: (وَإِذًا تُلَوِّحُ عُلَاقِيَهُمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) (آل عمران/ 191) وَيَنْتَهُونَ إِلَى النِّتِيجَةِ (رَبِّ نَزَّامًا مَّا خَلَقْتَ هَذَا بَطَّائِلًا سُدِّحَاتِكَ) (آل عمران/ 191) فَنَحْنُ نَسْتَوْحِي مِنْ ذَلِكَ عِظْمَتِكَ وَنَسْتَوْحِي عِبَادَتَكَ (فَقَدِمْنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران/ 191). وَهَكَذَا (وَإِذًا تُلَوِّحُ عُلَاقِيَهُمْ آيَاتُهُ) آيَاتِ الْقُرْآنِ، مِنْ خِلالِ النُّورِ الَّذِي يَشْرُقُ مِنْ كُلِّ آيَةٍ (قَدِّمْنَا جَاءَكُمْ مِنْ آيَاتِنَا نُورًا) (المائدة/ 15) (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (البقرة/ 257) وَهُوَ الْهُدَى، فَعِنْدَمَا تُلَوِّحُ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ، فَإِنَّهَا تَزِيدُهُمْ إِيمَانًا، لِأَنَّهَا تَزِيدُهُمْ مَعْرِفَةً بِالْإِيمَانِ سِبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمُحِبَّةً لَهُ وَخَوْفًا مِنْهُ. مِنْ هُنَا جَاءَ الْقُرْآنُ وَجَاءَتِ السُّنَّةُ الشَّرِيفَةُ بِالْحَثِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلاَى قُلُوبِ أَفْءَالِهَا) (محمدؑ د/ 24)، وهكذا نلتقي بالأحاديث الواردة في فضل قراءة القرآن، لأنَّ العقيدة ترتكز على اﻻ في توحيده، وجاء القرآن من أجل أن يعمِّق توحيد اﻻ في نفوس الناس.

لذلك، فلو قرأنا القرآن كلاً، لرأينا العنوان الكبير الذي يحكم كلَّ سورة وكلَّ آية هو «توحيد اﻻ»، إمّا بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، فقيمة القرآن أنَّهُ يفتح عقولنا على اﻻ من خلال ما في القرآن من موعظة ومن وعي ومن انفتاح ومن حركة نحو التفكير في آفاق اﻻ سبحانه وتعالى. وهذا ما يدفعنا إلى أن نقرأ القرآن لنتثقف به، ولتكون لنا الثقافة التوحيدية في تصوُّرنا لوحداية اﻻ، والثقافة الإيمانية في تصوُّرنا لكلِّ خطوط الإيمان به، وفي تصوُّرنا لمسؤولياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية والحركية في كلِّ مواقع الحياة، لأنَّ القرآن يختصر لنا كلَّ ما جاء به، وما جاء به هو «الحياة» (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَآ دَعَاكُمُ لِمَا يُحْيِيكُمُ) (الأنفال/ 24)، لما يحيي قلوبكم وعقولكم وحركتكم في الحياة. ولذلك، فإنَّ ما جاء به القرآن هو «الدعوة إلى الحياة»، أن نعيش حياتنا، فإﻻ تعالى لا يريد لنا أن نهمل حياتنا، ولكن أن نعيشها كما يجب لنا أن نصنعها وأن نحرِّكها وأن نغنيها وأن نوجِّهها، وأن نفتح كلَّ آفاقها على اﻻ سبحانه وتعالى، لتكون حياتنا كلاًها ذِكراً في الفكر وفي العاطفة وفي الحركة والممارسة والمسؤولية.